«لَوْ تسمح لِوداد بالذهاب إلى جدتها وتَزُفّ إليها بنفسها بشرى نجاحها بامتحان الدخول إلى دار المعلمين...»

«هل جننتِ؟! ومتى كانت ابنتي تخرج من البيت لزيارة أحد!؟» قاطعها منفعلاً.

«سألتُكَ أن تسمح لها بالذهاب إلى جدتها، أمُّك، كيف سترسلها إذن لمتابعة دروسها في دار المعلمين في بيروت ولا تزال تمنعها حتى من زيارة جدتها التي لا يبعد بيتها عن بيتنا مسافة رمشة العين؟!» تشجعت والدتي وسألت أبي.

كنت بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة من عمري حين تناهى إلى سمعي من غرفة والديّ المجاورة لغرفتي صوت أبي حازماً صارماً وقاطعاً لذاك الحوار القصير بينه وبين أمي بقوله لها كعادته كلما أراد إسكاتها، وبنبرة تهديد:« أم طلال!؟»... وساد الصمت.

«ما هو مصيري؟» فكَّرت.

«لا تقلقي، ستذهبين لمتابعة الدراسة في دار المعلمين في بيروت». وعدني أخي طلال وهو يودّعني قبل سفره إلى فرنسا. «لو يتحقق هذا الوعد..!» تمنيت بلهفة.

«البنت لا تخرج من البيت إلاَّ إلى أحد مكانين، المدرسة أو القبر».

كلام سمعته مراراً من أبي فأصبحت المدرسة عندي مرادفةً للحياة. وقد يكون من

حسن حظي أنه لم يُعِرْ انتباهاً إلى وجود محطة فيها للإقلاع إلى مختلف الأمكنة وللتعرف إلى شعوب العالم المتنوعة اسمها «المكتبة». انتهزت الفرصة باكراً وانطلقت بواسطتها خلسة إلى ترحالي الليليّ وأخفيت عن مرمى عينيه رفاق سفري منذ بدأت أحبس كل واحد منهم بدوره تحت وسادتي فلا أُفرج عنه إلاَّ بعد أن يتعبني التلصُّص من ثقب مفتاح الباب ويرهقني انتظاري لاستغراق أبي في نوم عميق.

وكم من مرة أَحْكَمْتُ أطراف اللحاف فوق رأسي لكي لا يَتَسَرَّبَ من طيَّاتِهِ نورُ قنديلٍ صغيرٍ يضيءُ بداخله دروب «الخيام» وهضباتها ومغارات ينابيعها التي أَبْدَعَ «حمزاتوف» في وصف جمالها لي في «بلدي»[١]، أو لألتقط صوراً رائعةً نثرها «غوركي» بِكَرَمٍ في «الأمِّ»[٢] عن أُمِّي.

وَلِئَلاَّ يستيقظ أبي ويكتشف سِرِّي كنت أُخْرِسُ ضحكاتي و«مارون عبود» يُسْمِعُنِي: «وتوثقت عرى القربى بيني وبين البقر، ولكن مصيبة جديدة مدت أذنيها في صبيحة حياتي، فَبَعُدَت الشِّقة بيني وبين المثلث الرحمات جدي الخوري... صرت أركب رأسي ولا أبالي به، فيحمي عليَّ ويقعد، يؤصلني ويفصلني قائلاً: راضع حليب البقر كيف يكون!!»، وَأَكْتُمُ حزني حين يَأْسَى:

«لقد أصبحت عبداً للناس منذ تصورت في البطن، وتقيَّدت بسلاسل مشيئتهم حين رفعت يدي أول مرة نحو السماء»[٣].

وَأُسْكِتُ في «الأيَّام»[٤] صيحة ولادة رفضي الأول لأنماط الحياة في القرية و«طه حسين» يروي لي كيف فقأ له عينيه ذلك الحلاَّق الغبي، وَأَحْرِصُ على ألاَّ يلمح أبي على وجهي ملامح السُّخْرية المُرَّة التي طبعتها عليه حماقات وسيئات مجتمع الرِّيْفِ الذي عشته مع «يوميات نائب في الأرياف»[٥] وتحت فرشة سريري، خبَّأت صورته التي نجح «نجيب محفوظ» في رسمه لها وقدمها إليّ في ثُلاثِيَّتِهِ بعد أن أطلق عليه اسم «سي السيد»[٦].

ولَمَّا سألني أبي مَرَّة مما أشكو وقد لاحظ شحوباً على وجهي، بكيت.

أبكيت خوفاً من أن يزل لساني بإجابة تشفُّ عن انشغالي بالتفكير في إيجاد

---

(١) «بلدي» للكاتب والشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف.
(٢) «الأم» رواية للكاتب الروسي مكسيم غوركي.
(٣) الجراب، صفحة ٥٥، طبعة دار الثقافة.
(٤) «الأيام» للأديب طه حسين روى فيها سيرة حياته.
(٥) «يوميات نائب في الأرياف» للأديب توفيق الحكيم.
(٦) «سي السيد» بطل ثلاثية الأديب والروائي نجيب محفوظ: قصر الشوق والسكرية وبين القصرين.

جوابٍ على سؤال «همنغواي» لي ذات ليلة: «لمن تقرع الأجراس؟»[٧]، أو إجابة يستدل منها جنوحي إلى «السَّأم»[٨] الذي أغراني به «مورافيا»؟ أو أخرى تفصح عن استلاب «دوستويفسكي» لعقلي مما جعلني أنصاع لتلبية دعواته اللجوجة لي للتجوال في غياهب مناطق حالكة الظلمة في نفوس «الأخوة كارامازوف»؟[٩].

أَمْ بَكَيْتُ ارتعاداً وَهَلَعاً من دويِّ القنابل الإسرائيلية الذي كان يزلزل أرض «الخيام» وهي تعبر سماءنا لتدكّ مكامن الفدائيين في قرى جبل الشيخ بعد هزيمة الخامس من حزيران؟

بكيت ولم أدرِ حينذاك لماذا راودتني رغبة متمردة. تمنيت أن أكون واقفة مع جمهور عديدٍ خلف «جبران» نردِّد من بعده صرخته المريرة:

«يا بني أمي»[١٠].

* * *

اطمأن أبي لفكرة إقامتي في ديرٍ للراهبات، وتضاعف اطمئنانه عليَّ بعدما رفضت الراهبة المسؤولة طلبه رؤية الغرفة التي سأقيم فيها. «ممنوعٌ على أيّ رجل دخول غرف الطالبات المقيمات في الدير حتى ولو كان أباً مِثلك»، قالت له. ولا أنسى كيف استراحت قسمات وجهه جرَّاء هذا المنع فشكر الراهبة على حسن إدارتها، وقبل أن يقفل راجعاً إلى «الخيام» كرَّر على مسمعي وصاياه: «لا تكلِّمي أحداً»، «لا تصادقي أحداً ولا تَنْسيْ لحظة أَنَّكِ في بيروت لمتابعة دراستك فقط» وختم بتذكيري: «ولا تَنْسيْ أبداً حمل السكين التي علَّمتُكِ كيف تدافعين بها عن نفسك إذا ما تحرَّش بكِ أحد الزعران».

كوَّنت «دار المعلمين» آنذاك وطناً صغيراً لي. عشرات بل مئات من الطلاب أتوا إليها من كافة فئات مجتمع لبنان الكبير، بدءاً من رأس الناقورة وانتهاءً بآخر جردٍ في أعالي عكار، وكنت واحدة منهم طالبة في عمر المراهقة قرويَّة الزّيّ واللهجة، ذاكرتي تَحْرُسُ كل ما شاهدته مع رفاق سفري، وصدري يلذعه بين الفينة والفينة حنين إلى فَيء بيلسانة تزين حديقة بيتنا الخيامي، وفي جيبي سلاحي جاهز لردع أي أزعر.

وسرعان ما أخذت تغريني دعوة زملائي للمشاركة في الإضراب والتَّظاهر لِحَثِّ الدولة على تحقيق مطالب لَخَّصُوها بشعارات سَطَّرُوها على يافطات كبيرة: «توحيد الكتاب المدرسي، مجانية التعليم، مجانية الطبابة، التجنيد الإجباري، إلغاء الطائفية، زيادة

(٧) «لمن تقرع الأجراس» للكاتب الأميركي أرنست همنغواي.
(٨) «السأم» للكاتب الإيطالي ألبرتو مورافيا.
(٩) «الأخوة كارامازوف» للكاتب الروسي دوستويفسكي.
(١٠) «يا بني أمي» من كتاب «العواصف» لجبران خليل جبران.

منحة التعليم، تطوير المناهج المدرسية، التعليم الإلزامي، محو الأمية، التضامن مع شعب فلسطين لتحرير أرضه، النضال من أجل تحرير شعوب العالم ووحدتها، الوحدة العربية، العدالة الاجتماعية، حرية الفكر والمعتقد».

في فضاء هذا «الخطاب» المتعدِّد الطروحات راح ينمو في وجداني إحساس بالمسؤولية ويتأسَّس اقتناع بضرورة مشاركتي في ورشة التغيير في الوقت نفسه الذي اختلطت فيه أصداء الثورة الطلابية(١١) القادمة من فرنسا بأصوات الطيران الإسرائيلي وقصفه اليومي لقرى الجنوب وبعناوين صحف بيروت اليومية تعلن أعداد القتلى والجرحى والأسرى من الفدائيين.

«أعتذر من وصاياك يا أبي»، فَكَّرْت، ورحت أنزعها عني وصيَّة بعد وصيَّة، وأخذت أبحث بين أفرقاء الطلاب المتعدِّدي النزعات الفكريَّة حولي عن جهة تتقاطع تَطَلُّعاتُها وطروحاتُها التَّغييريَّة مع طموحي الرومانسي الجامح إلى سماع رنين أجراس تُقْرَعُ في كل مكان مؤذِّنَةً بانتفاضة «البؤساء»(١٢) ضدّ من أقفل بوجههم غرف المدارس وأسرَّة المستشفيات، وبوجه من أَطْلَقَ على أعينهم حلاَّقَ القرية ليفقأها، وسلَّط على نفوسهم ظلمة حالكة السواد دفعت وتدفع بهم كل يوم إما إلى الموت، أو إلى السجون. «هؤلاء البؤساء لو كان أحبَّهُم مورافيا لما تورَّط في السَّأم». خطر في بالي.

لم يَدُمْ بحثي طويلاً خاصة بعد أن أهدتني صديقتي رجاء «ما العمل؟»(١٣). وبدأت أستمتع بسماع رفاقي في «الحزب الشيوعي» ينادونني ب: «يا رفيقة»، وغمرني فرح لا حَدَّ له بالانتماء إلى أسرة كونيَّة يحلم أفرادها بتحقيق عدالة تصون كرامة الإنسان.

«أُكَرِّر اعتذاري إليك يا أبي»،

فَكَّرت ثانيةً وأنا أتأبَّط رُزَمَ المنشورات التي سَلَّمني إيَّاها الرفيق في «مطبعة النجاح» بعد أن قاربت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. انطلقتُ من المطبعة باتجاه سينما «بيبلوس» حيث كان عددٌ من سائقي باصات «الأحدب» ينادون بصوت عالٍ: «طرابلس، طرابلس». شاهدني أحدهم فتوجه نحوي يسألني: « رايحه عَ طرابلس؟» ارتبكت للحظة، خفت أن يكون من رجال المخابرات ويكتشف أمر المنشورات، فاتجهت يساراً وسلكت زاروباً ضيقاً ثم زاروباً ضيقاً إلى اليمين وإلى يمينه آخر أقل ضيقاً باتجاه «ساحة الدبَّاس».

(١١) المقصود الثورة الطلابية التي هزَّت فرنسا والعالم في عام ١٩٦٨.
(١٢) تمت استعارة كلمة «البؤساء» من عنوان رواية الكاتب الفرنسي فيكتور هوغو.
(١٣) «ما العمل؟» كتاب للزعيم الروسي لينين.

«لماذا تستند كل واحدة من هؤلاء النساء وهي شبه عارية إلى عمودٍ من أعمدة بلاكين هذه الأبنية المتلاصقة؟»

وَ«لماذا أُضيئت هذه البلاكين بأنوار خافتة حمراء وصفراء وبنفسجية كما لو أنها مُرْسَلَة من فوانيس دمشقيَّة لترسم إطاراً لشفاهٍ فاقعة الحمرة تتحرك ببطءٍ على إيقاعِ مضغِ عِلكة؟»

وَ«لماذا تغمز لي إحداهنَّ بعينها وهي تكشِّر عن أسنانها؟»

وَ«لماذا تبتسم لي أخرى؟»

وتساءلت أيضاً وأنا أُحْكِمُ إبطي على رُزَم المناشير لِئَلاَّ تنزلق مني إحداها: «هل أن جدتي «أم سطام» قد مرَّت من هنا قبل أن تحكي لي حكاياتها عن الجنيَّات؟».

كان الرفاق بانتظار وصولي بالمنشورات، أَغْرَقوْا في ضحكات مجلجلة لَمَّا أخبرتهم عن جنيَّات الزواريب اللواتي شَاهَدْتُهُنّ، وسألني أحدهم باستنكار:

«لماذا مررت بشارع المتنبي!؟»

لم يكن لدينا الكثير من الوقت لنبدأ بتوزيع المنشورات على ثانويات بيروت، وفي اليوم التالي، وبعد أن أوهمتني إحدى زميلاتي بإعجابها بما نقوم به وطلبت مشاركتنا في الدَّعوة إلى الإضراب فَرِحْتُ بِكَسْبي لها «صديقة» جديدة للحزب ولم أشُكّ لحظة في أنها واحدة من عملاء الإدارة (كما كنا نُسَمِّيْ بعض الطلاب الذين دَسَّهُمْ مدير دار المعلمين بيننا لرصد تحركاتنا) وسلَّمْتُها رزمة من تلك المنشورات صدر على إثرها قرار إداري بطردي من الدار مع مجموعة من رفاقي.

وكالعادة كلما كانت تواجهنا أيّ ورطة أو سوء تفاهم مع إدارتنا لَجَأْنَا إلى أستاذنا الدكتور «ميشال عاصي» لكي يتوسَّط لنا معها ويصل ما انقطع بيننا وبينها. فنجح في وساطته إلاَّ أن عفو المدير عنَّا جاء مشروطاً باستدعائه أولياء أمورنا لِتَوْقِيْعِ تَعَهُّدٍ يقضي بالتزامنا بقوانين الدار فأُسْقِطَ في يدي..

كنت حينذاك قد أصبحت في السنة الدراسية الثالثة والأخيرة ولم يبقَ على تخرُّجي سوى بضعة أشهر. «كيف يمكنني مواجهة والدي بقرار المدير بطردي؟» فكَّرت وأنا أذرع طول باحة ملعب «المدينة الرياضية وعرضه» المقابل لدار المعلمين، وفجأة خطرت ببالي فكرة شقيَّة حين لمحت دهَّاناً يطلو بفرشاته جدار ملعب المدينة وقد تشبَّثت رجلاه بأعلى درجات سُلَّم. «يا عَمْ، يا عَمْ» ناديته، كان يبدو منطرباً بصوته وهو يُمَيْجِنُ: «احبابي وين ما راحوا يحلُّون» فلم يسمعني إلاَّ بعد أن كررت ندائي عدة مرات. «ماذا تريدين يا ابنتي؟» سألني بِرِقَّةٍ بعد أن هبط على الأرض. «طردتني إدارة

مدرستي ولن تعفوَ عَنِّي إلاَّ بكفالة يوقِّع عليها والدي شخصياً»، قلت له بِمَسْكَنَة، فنظر إلي مستغرباً، «ووالدي موجود خارج لبنان منذ سنوات طويلة»، أَكْمَلْتُ كاذِبَةً، ثم مددتُ يدي إلى جيبي فتناولت منها ليرتين كانتا بحوزتي قدَّمتها إليه وأنا أرجوه أن يُرافقني كوالدٍ حقيقي لي إلى الإدارة ويوقِّع على ذلك التعهُّد.

كنت أعرف أنها محاولة منِّي عبثيَّةً وشقيَّة، ولكن ما حدث بعد ذلك كان مُفَاجِئاً لاحتمالي برفضه لِعَرْضِي. فبعد أن وضع الليرتين في جيبه ومسح بثيابه بعض الطِّلاء الرَّطِبِ عن كَفَّيْهِ وأشعل سيجارةً، رافقني باتِّجاه الدار.

وَ: «يا عيب الشُّوم، تْفُو عْلَيْكِ وعَ هالتّربابة، هيك بْتَعْمْلِيْ فِيِّيْ، قدَّيه بتعب وبشقى لَطَعْمِيكُن؟»

شتمني ذلك الرجل الأربعيني بهذه الكلمات وهو ينظر إليَّ بغضب شديد بينما كان يبصم على التَّعَهُّد أمام مدير دار المعلمين ثم تقدَّم مني وصفعني صفعتين قويَّتين، وقبل أن يغيب خلف باب غرفة الإدارة قال لي مهدِّداً:

«بْفَرْجِيْكِ شُوْ رَحْ أَعْملْ فِيْكِ بالبيت»، ثم توارى وسط ذهولي وابتسامات زملائي الشامتة.

* * *

بعد أن فتح باب المدرسة وسلمني مفتاحها راح مختار «زوطر الغربية» يخبرني عن معاناة أهالي هذه القرية الواقعة في شرقي قضاء النبطية بسبب حرمان أبنائهم من التعليم والطبابة.

«وأخيراً استجابت وزارة التربية لِتَوَسُّلاتِنَا وأرسلت مُدَرِّسَةً إلينا، نحن منسيُّون هنا، كأننا غير موجودين على خارطة هذا البلد»، قال لي وهو يُريني الغرفتين اللَّتين بناهما أهل القرية بعرقهم ومن مالهم الخاص.

وقال لي أحد الآباء وهو يقدِّم لي مفتاح بيت واحد من أقاربه المقيمين في بيروت: «أهلاً بكِ بيننا، من الغد سيرتاح أولادنا من مَشَقَّةِ السَّيْرِ اليومي الطويل إلى مدارس النبطية».

حتى كتابة هذه الأسطر لا أذكر أنني عشت لحظةً تضاهي جمال وروعة اللحظة التي استقبلتني فيها وجوه عشرات الصبيان والبنات المملوءة بهجة وأملاً. بدا عليهم وكأن صبرهم نفد بانتظار من يفتح أمامهم باب مدرستهم للمرة الأولى، تسابق طفلان منهم على الإمساك بطرفي قميصي بينما كنت أهم بفتح الباب، وسألني ثالث وعيناه تتفحصان حقيبتي إن كنت أضع في داخلها الطباشير والمسطرة، ثم تدافعوا جميعاً

يدخلون من خلفي ومن جانبيَّ ثم جرتني طفلة لتريني من النافذة منزلها، وثانية قدَّمت لي باقة من أزهار الشوك الليلكية، ومن فوق رأسها تطاولت يد طفلٍ ليناولني سيجارتَي لَفّ. «بانتظاري عمل شاقّ»، فكَّرت.

جَاؤُوا من أربعة صفوف ابتدائية، قسمت بالمقاعد كل غرفة إلى صفَّيْن وباشرت عملي، مديرة ومعلمة وحارسة. وَبَدَأَتْ مدرستي شيئاً فشيئاً تتأثر وتؤثِّر في إيقاع حياة «زوطر الغربية» اليومية لِتُصْبِحَ جزءاً لا يتجزَّأُ من قانون طبيعتها فصارت تَتَعَطَّلُ الدروس فيها إذا ما امتلأت قساطل مياه الشفة النادرة الامتلاء لاحتياج تلاميذي لأخذ قسطهم في حمَّامٍ دافئٍ، وتَتَعَطَّلُ لِنُهَدْهِدَ رضيعاً أتت به أمه إلى الصف وتركته عُهْدَةً في حضن أخيه أو أخته الأكبر لاضطرارها إلى زيارة طبيب في المدينة. وبما أنَّ زراعة التبغ هي مورد الرزق الوحيد لمعظم أهالي القرية، فإن تعطيل الدروس صار أمراً عادياً بسبب اضطرار تلاميذي للذهاب إلى العمل في مواسم الرَّيِّ أو القطاف.

ولا أنسى لمَّا دخلت إلى المدرسة مفتِّشة الوزارة «مفيدة» ذات مرة ووجدتني جالسة أمام نافذة الصف أتأمل من بعيد تلاميذي المنتشرين بين أهليهم في حقول التبغ الممتدة، فبادرتني بقولها الساخر: «يا ألله، ناقص تكتبي شعر»، وسألتني باستنكار وهي تنظر إلى المقاعد الفارغة: «وين التلاميذ؟!» فأشرت بيدي إلى أطيافهم البعيدة تحت شمس أيار اللاذعة، «يا سلام، وكيف بتسمحي لَتْلامِيْذِكْ يغيبوا عن المدرسة ويروحو عَ الشّغل مع أهلُن، شو باعتينِك تعملي هون؟»، فلم أُجِبْها، فرمقتني بنظرة مستخفة وخرجت غاضبة. ولمَّا قبضتُ راتبي بعد شهر على زيارتها وجدته ناقصاً مبلغ خمسة أيام. كان تقريرها قد قَدَّم نُصحاً إلى وزارة التربية بذلك.

ورويداً رويداً أَخَذَتْ هَدْأَةُ ليلِ «زوطر» تَجْلُو عتمةً كان حبِّيْ لـ«الخيام» قد تاهَ في غَيْهَبِهَا عشرين عاماً وقشع بَدْرُهُ سحابةً حجبت عني طويلاً حقيقة أَنِّي هي، وهي أنا، تنامُ إذا ما نِمْتُ وَتَصْحُو مع صَحْوِي وأَتكلَّمُ بِلِسانِهَا ونفرح معاً كلما دقَّ بابَ بيتي زائر جديد.

وكما أصبحتُ أشتاق طُلُوعَ النهار لِرُؤْيَةِ أَصَابِعِ تلاميذي ترتفع بحرارة وهم يتسابقون لإجابتي عن سؤال في فروضهم أو دروسهم أو لأخذِ إذنٍ في مَحْوِ اللوح أو بَرْيِ أقلام الرَّصاص في سلة المهملات تحته، صرتُ أحنُّ إلى حُلُوْلِ الليل لفتح بابي أمام قامات أهليهم المُنْهَكة تحت وطأة احتكار «شركة الرِّيجي» لشراء محصولهم بأسعار تكاد لا تكفي لِغَسْلِ اللون الأصفر عن أكفِّهم التي لَوَّنَتْها أوراق التبغ. ولمَّا فاجَأَنِي والدي ذات صباحٍ بِمَجِيْئِهِ المُبْكِرِ وَوَجَدَ بقايا الشَّاي في الفناجين التي خَلَّفَها رِفاقُ لَيلي رَمَقَنِيْ بنظرةٍ غريبة لَمْ يَسْبِقْ أن قرأت قبلاً في عَيْنَيْهِ مَعْناهَا وَلَمْ يَرُدّ عَلَيَّ

تحيَّة الصباح وأقفل راجعاً بِصَمْتٍ لم أدرِ إن كان ناتجاً عن احترامِهِ لِلْمُدَرِّسَةِ التي صُرْتُها أو عن عِزَّة نفسه التي منعته من الاعتراف بتَطَوُّرِ مفاهيمه وازدياد قابليتها للتفاعل مع سرعة المتغيِّرات التي طاولت كل تفاصيل الحياة.

«متى نبدأ؟»، سألتني بلهفة إحدى أمهات تلامذتي لَمَّا أخبرتهن عن نِيَّتِيْ بإعطائِهِنّ دروساً في مَحْوِ الأُمِّيَّه. «ونحن أيضاً نريد أن نتعلَّم القراءة والكتابة»، علَّق أحد الآباء قائلاً بحماس. وعندما رفضت وزارة التربية طلبي إليها السَّمَاح لي بإعطاء تلك الدروس في مبنى المدرسة بعد انتهاء الدوام الرسمي، احتجَّ مستنكراً أبٌ: «ولكننا نحن الذين قدَّمنا للمدرسة قطعة الأرض وبِمالِنا وسواعدنا بنيناها وهي ملكنا». ولكي لا تضيِّع الفرصة سألتني أمٌ «هل يصلُحُ صالون بيتي للتدريس؟»، فَرَدَّتْ أخرى: «لا، صالون بيتي أكبر».

إلاَّ أنهم وعلى الرَّغم من غبطتهم بزواجي بعد ذلك ببضعة أشهرٍ لم يستطيعوا إخفاء حسرتهم على ضياع الشَّهادات التي حال انتقالي إلى إحدى مدارس «النبطية» دون حصولهم عليها.

* * *

لَمَّا وصلتُ إلى «مكتبة هاني»(١٤) التي تتصدَّر شارع النبطية الرئيسي وسمعته يقول لأحد زملائي في مدرسة البنات: «شو بدَّك بالجريدة ليه إنت بتعرف تقرا؟» ورفض بيعه «النهار» في الوقت الذي وصل فيه زميل آخر في مدرسة البنين وطلب شراء أقلام حبر ناشف فسأله هاني باستهزاء: «شو بدَّك تعمل فِيُن؟» ورفض بيعه إيَّاها تأكَّد لي ما أخبرني به «زعل»(١٥) عن سرعة بديهة وذكاء وظُرْفِ أبناء مدينته أحفاد شيوخ الفقه واللغة والعلم والتأريخ «أحمد رضا» و«سليمان ضاهر» و«محمد جابر» و«حسن كامل الصبَّاح»، «لا مكان في مجالسها إلاَّ لِظريفٍ أو صاحبِ معرفة أو لِمُتَذَوِّقٍ للجمال»، قال لي.

وكعادتها النبطية مع كل وافدٍ جديد عليها احتضنتني، وشاءت مكاناً لاحتفالها بزفافي إحدى قاعات صفوف مدرسة «فريحة»(١٦) حيث عَلَّق «زعل» على أحد جدرانها مَهْرِي، زيتية من لوحاته، واختارت عريفةَ الصَّف لِتُلْبِسَنَا الخواتم.

(١٤) «مكتبة هاني» هي المكتبة المشهورة في النبطية لصاحبها الصديق هاني الزين.

(١٥) الفنان التشكيلي زعل سلوم.

(١٦) «مدرسة البنات الأولى» سمِّيت باسم مديرتها فريحة الحاج علي نظراً لوطنيتها ونصرتها لقضية تعليم البنات.

وبدأتُ أشارك «زعل» في إشعال الشموع ليصل «ياسر»[١٧] بقصيدته لحبيبة جديدة، وَ«عَلِيْ»[١٨] بِعُوْدِهِ الذي غالباً ما كنا نقضي الليل بانتظار انتهائه من دوزنته. وصار يهدأ عواء الذئاب من حولنا كلما تسرَّبت إلى أسماعها من فضاء بيتنا المزروع على خاصرة وادٍ موسيقى أصدقاء ليل «زعل» من «باخ» و«موزار» و«تشايكوفسكي» إلى «بيتهوفن» و«بيزيه» و«فيفالدي» فتنكفئ من حيث أتت لِيُكْمِل رسم لوحته ما قبل الأخيرة.

وغالباً ما كان يستعصي عليَّ إيجاد كلام يقنع ياسر بجدوى المحاضرات أو الحلقات النسائية التي هدفها الانتصار لحقوق المرأة المهدورة حين يعلِّق على نشاطي فيها بقوله: «بلا هالتَّعب صدِّقيني، حقوق الرجال هي المهدورة، ها هو نُحُوْلِي أمامكِ، هل ترين ما فعلته بي حبيبتي؟» ثم يسألني إن كنت خلال المحاضرات أقوم بنصح النساء بالامتناع عن أكل الفول أو الثوم أو الفاصوليا. ومرةً وأنا أُخْبِر كيف دفع رجال «صريفا»[١٩] بأطفالهم لرشقي مع رفيقتي «وطفة» بالحصى أمام قاعة المسجد بعد انتهاء محاضرتي وحثِّي لزوجاتهم المزارعات على النضال لتحقيق استقلالهن الماديّ سألني «زعل» مستغرباً: «ليه ما في حجارة ب«صريفا»»؟ وياسر ملهوفاً: «حبيبتي كانت معكُن؟».

وشهراً بعد شهرٍ وسنة بعد سنة، ومع جنون القصف الإسرائيلي للنبطية الذي أخذ يفجر بقنابله أساسات منازلها ومدارسها ومستشفاها وسراياها وامتزاجِ دويِّه بنحيب أمهات وآباء كان الموت القادم من أقصى الجنوب ينتزع أبناءهم طفلاً بعد عريس وبِبُكاء أطفال لم يفهموا إلى أين تُحْمَل الأحضان التي كانت أسرَّةً لنومهم، بدأت تنطفئ شموع بيتنا شمعة بعد أخرى بحلول نيران الحرب التي راحت تمتدُّ على مساحة البلد لتلتهم أحلام جيلي وتشوه بهاء طفولة صغارٍ ورُضَّعٍ بينهم أطفالي الثلاثة.

ولم يخطر ببالي وأنا أشارك رفاقي في تأمين طعام وملبس يحتاجه المقاتلون في معارك الجبل[٢٠] حينذاك أن تكون حياتي الخاصة موضوعاً لاجتماع دُعِيت إليه «طارئ ومُهِمّ» (كما قال لي الذي كُلِّف بدعوتي).

«لدينا أسئلة تقلقنا حول حياتكِ الخاصة»، توجَّه إلَيَّ بهذا الكلام مسؤول المنظمة مفتتحاً الاجتماع. ولمّا لاحظ أحد الرفاق استهجاني لِمَا سمعته تطوَّع شارحاً ما التبس

(١٧) الشاعر الصديق ياسر بدر الدين.
(١٨) علي زين الدين الصديق المفتش في الضمان الاجتماعي.
(١٩) «صريفا» هي قرية من قرى جبل عامل تقع بالقرب من صور.
(٢٠) «معارك الجبل» المقصود تلك التي وقعت بين عامي ١٩٧٦ و١٩٧٧.

عليَّ فهمه وأثار دهشتي: «الرفيق يعني انغماسكِ مع زوجك في حياة بورجوازية، الأمر الذي يرتِّبُ عليكِ القيام بنقدٍ ذاتي أمامنا».

«خطأٌ جديد يقترفونـه لا أقبل به جدلاً»، فكَّرت وأنا أتوجَّه صامتة نحو الباب الذي قرَّرت ألاَّ أدخل منه ثانية.

وعلى وقع القذائف انقضت شهور طويلة وقَّع «زعل» خلالها ما زاد على ثمانين لوحة استعداداً لمعرضه في عَمَّان قبل حلول ليلٍ لم نكن نعلم أنه سيكون فاصلاً في حياتنا.

كنا وَاقِفَيْن خلف نافذة بيتنا المُطِلَّة على وسط النبطية نرصد أماكن اندلاع الحرائق فيها ففاجأني «زعل» بخروجه مهرولاً بين الشظايا باتجاه مرسمه.

«احترقت كل اللوحات»(٢١)، سمعت صوته المختنق بالدمع يكرِّر بحرقة وهو عائد يجرجر خطى تنوء تحت ثقل الخسارة الجسيمة.

في صبيحة اليوم التالي اخترنا بيروت مقاماً لتهجيرنا خِلْنَاهُ مُؤَقَّتاً، فانتهزت فرصة مجاورة كلية الحقوق لمنزلنا لأُكْمِل فيها شهادة طالما حلمت بنيلها.

* * *

مع بداية الثمانينات كان انعكاس الشارع البيروتي على غالبية المدارس واضحاً بازدحام مقاعدها بتلاميذ ميليشياويَّة مما دفعني إلى الاستقالة من التعليم والتحاقي بأحد مكاتب المحاماة.

وشعرت بأهمية عملي كمحامية إلى جانب زملائي على الرغم من صعوبة ممارسة المحاماة في وقتٍ اعْتَبَرَتْ فيه الميليشياتُ حُمَاةَ القانون والمؤسسات من قضاة ومحامين ورجال أمن خارجين على قانونها فأمعنت في اصطياد الكثيرين منهم لترمي بهم في أعماق خنادقها وسراديبها قتلى أو أسرى أو جرحى مشوَّهين بفعل إبداعها في تعذيبهم.

وبدأت تتداعى مع كل مشكلة تعرض أمامي صورة ليافطة من الشعارات التي كانت سبباً لطرد أو اعتقال غالبية جيلي من ثانويين وجامعيين، فتذكرت كيف صُوِّبَت رصاصات رجال الأمن على أحرف «إلزامية التعليم» وأحرقتها حرفاً حرفاً عندما قالت إحدى موكلاتي:

«أتاني أخي برفقة رجلين وطلب بَصْمَتي على أوراق كان يحملها بحجة أنها عقد

(٢١) تم احتراق كافة اللوحات بتاريخ ١٩٧٧/٦/١ جراء قصف مرسم زعل بقنبلة إسرائيلية.

استثمار بيننا وبينهما يتعلق بالأرض التي ورثناها عن والدنا، لم يخطُر ببالي وأنا أبْصُمُ عليها أنني أبيعه ميراثي».

«ألم تطلبي منه أن يقرأ على مسمعك مضمون تلك الأوراق قبل أن تبصمي عليها؟» سألتها.

«لا، احترمته أمام الرجلين الغريبين ولم أفكر بأنهما شَاهِدَا زور اشترى أخي ضميرهما ليسرقني..!» رَدَّت بأسى.

وعندما ندَّت بالدَّمع عينا مُوكِّلي وهو يسألني كيف يمكنه استرداد مصاغ الخطبة الذي أبَت أُمُّ خطيبته إعادته إليه بعد أن فاجأته بِفَضِّ خطبته على ابنتها، تذكَّرتُ قيام عددٍ من الأمهات باتِّهامنا في «لجنة حقوق المرأة» بتحريض البنات القاصرات على التمرُّد على العادات والتقاليد إثر مناداتنا بعدم دفع القاصرة إلى زواج مُبْكِرٍ قبل اكتسابها شهادة علميَّة أو مِهنيَّة تحمي مستقبلها من نتائج زواجٍ ربما يكون فاشلاً بانتهائه بطلاق أو تَرَمُّل وعوز.

«قَتَّرت على نفسي لكي أوفِّر ثمنه إسوارة بعد إسوارة للعروس التي سأتزوجها» قال لي بحرقة.

«ما هو موقف خطيبتك حيال كل ذلك؟» سألته.

«إنها لم تتم السابعة عشرة من عمرها وأمها تمنعني من رؤيتها»، أجابني ثم أردف قائلاً: «أخبرني جارنا المصوِّر أن حماتي أرسلت صورة خطيبتي إلى رجل يعمل في بلد أفريقي طلب من والدته مجموعة من صور بنات بلدتنا ليختار من بينهن عروساً له وأنها تصلي من أجل أن تفوز صورة خطيبتي بإعجابه».

وفي أوائل التسعينات، وعندما عجزتُ عن إيجاد جوابٍ لِموكلة تجاوزت الخامسة والخمسين من عمرها فقدت زوجها وَفُوجِئَتْ بحرمانها من حقِّها بميراثه بسبب اختلاف مِلَّتَيْهِمَا، وكان «اتِّفاق الطائف» قد وضع حدّاً لِوِزْرِ الحرب بتعديل جملة من قوانيننا واستحداث أخرى غاب عنها حضور قانون مدني اختياري ينظم الأحوال الشخصية، تساءلتُ: «هل انتهت الحرب فعلاً؟»

«لو كنت خادمة له لاستحققت تعويضاً يحميني من العوز، أمِن العدل حرماني من ميراث زوجي، من أين آتي بالمال لمعيشتي بعد رحيله؟» سألتني بمرارة.

ولما زارني موكِّلٌ سابق بعد بضعة أشهر على انصرافه من مكتبي حاملاً معه مستندات فشلي في إبطال زواجه وألقى أمامي بإخراج قيده الجديد مُشيراً بإصبعه إلى ما كُتِبَ بجانب خانة المذهب فيه فقرأت «مسلم» وإلى خانة «الوضع العائلي» قرأت

«مُطَلَّق» أخذ ينتابني خوف من الغدِ، وبَعْضٌ من محلِّلي السياسات، والإعلاميين، لا زالوا يكرِّرُون وصفهم لتلك الحرب ب«الطَّائِفِيَّة».

«لَوْ من زمان عْمِلْتْ مسلم ما كنت خسرت خمس سنين من عمري». قال لي بنبرة المنتصر.

ولا تزال جلجلة ضحكته تتداعى إلى أذنيّ كلما تذكرت مقاطعته تهنئتي له بتحقيق مراده بقوله لي:

«أجّلي التِّهناية لَبَعْدْ ما إرجع مسيحي، إذا بْظَلّ مسلم بخسر حقِّي بتركة أهلي».

بعد أن يئس من صدور قرار يقضي بإبطال زواجه من زوجته التي كانت قد سافرت منذ عدة سنين لتقيم مع عائلتها في إحدى دول المهجر وتمنَّعت عن العودة إليه بحجة خوفها المزعوم من الحرب التي انتهت، لَم يجد ذلك الرجل حلاً لِمُشكِلَتِه إلاَّ بتنفيذ نصيحة أحد أصدقائه فعمد إلى تغيير مذهبه بإشهار إسلامه، الأمر الذي حقق له ما عجزت كل المراجع والاجتهادات التي استدعيتها لنصرته.

«لو يُقدِّم لي صديق موكلي السابق نُصحاً بحلٍّ لمشكلة هذه الشابَّة». تمنيت بلهفة مع بداية الألف الثالث بعد أن أجهشت في البكاء وراحت تُرَدِّد: «أفضل حَلٍّ لِمُشْكِلَتي هو الانتحار».

«حُبِّي له جعلني أصدِّق كلامه عن شرعية زواج المتعة، وعدني بإعلان زواجنا بعد أن يستقرّ في عمله الجديد»، قالت بعد أن جرعت قليلاً من كوب ماءٍ قدَّمْتُهُ إليها، وبنبرة متهدِّجة أكملت: «أنكر معرفته بي لَمَّا أخبرته بحملي منه ثم غَيَّر رقم هاتفه الخليوي واختفى، سألت عنه في كل مكان، في مقرِّ عمله، أصدقاءه، أخته، جيرانه، كما لو أنه ذاب كحبة ملح في نقطة ماء. سوف يقتلني والدي إذا علم بأمري، ماذا أفعل؟» سألتني مستغيثة.

«هو زواج شرعي بنظرنا» أجابني أحد قضاة الشَّرع لَمَّا سألته عن شرعية زواج المتعة.

«ولكن الزوج أنكر زواجه من موكلتي لَمَّا عرف بحملها منه. فما هو وضعها القانوني في هذه الحالة وما هو مصيرها وجنينها؟» سألته لأستزيد معرفة.

«يمكننا أوَّلاً التَّثَبُّت من حقيقة زواجها بكافة الوسائل، فإقرارها بحصوله يُعَدُّ قرينة لمصلحتها، وثانياً، يترتَّب عليها إجراء تحاليل مخبريَّة لإثبات نسب الجنين إلى الزوج المزعوم فربَّما تكون كاذبة في زعمها بحصول هذا الزواج بينها وبين ذلك الرجل».

رَنَّ هاتف فضيلة القاضي الخليويّ فاعتذر مني لدقائق كي يَرُدَّ على مُكَلِّمِهِ، فانتهزت الفرصة وخرجت تأدُّباً من مكتبه قبل أن أسمع جوابه على سؤالي عن كيفية معالجة هذه المسألة والزوج اختفى وربما سافر إلى خارج البلاد تهرباً من مسؤوليته.

لَمَّا وصلت إلى بيتي كان ولداي قد انتهيا من حزم حقائبهما استعداداً لهجرة عجزت محاولاتي كافة عن ثنيهما عنها.

«هل ستجدان خارج حدود هذا الوطن أجمل وأبهى من أرضنا وشمسنا وبحرنا وجبلنا؟» سألتهما والغصة تمسك بخناقي فأجابا بصوت واحدٍ:

«أتظنين يا أمي بأن الوطن هو مجرد أرض خصبة وشمس بهية وبحر صافي الزرقة وجبل أخضر؟»